المؤرخ وثقافة عصره

ذ. محمد مفتاح(*)

قد يكون من الجحود أن لا يعتبر المؤرخ غير متأثر بثقافة عصره، وخصوصا ما هيمن منها وكون منعطفا أو إبدالا، كما أنه يكون من المكابرة أن لا يؤخذ في الحسبان جنس التاريخ وأنواعه وأصنافه. وتجنبا للجحود وإبعادا للمكابرة يجب التسليم بأن المؤرخ يكون متأثرا بثقافة عصره، وخصوصا ما كان ذا وجاهة منها مثل أنواع العلوم المختلفة (الميكانيكا، والفيزياء والبيولوجيا...) كما يكون موجها بخلفياتها الفلسفية والإيديولوجية... ويخضع لهذا التأثير المؤرخ المحترف والهاوي معا..

إذن المؤرخ يستعير مفاهيمه ويقترض طرق بحثه أيضا من ثقافة عصره ؛ ومن يرجع إلى تأريخ الكتابات التاريخية يجد أدلة مصدقة لما بين يديه من تلك الكتابات. ومن بين الأمثلة التي تقدم في هذا الشأن كتابات تيوسيدس Thucides. فقد استقى من الفلسفة السوفسطائية، ومن طب أبقراط، ومن مسرح سوفوكليس ؛ وكتابات ابن خلدون في المقدمة وظف فيها المنطق والرياضيات وأصول الفقه وفلسفات شمولية.. وأما صنيع المؤرخين المحدثين والمعاصرين فهو لا يحتاج إلى إثبات، إذ أن كتاباتهم التاريخية تستند إلى مفاهيم العلوم الخالصة والاجتماعية والإنسانية أيضا.

إذا سلمنا بهذه المقدمات فإن عرضنا سيتناول ثلاث نقط ؛ أولاها تأثير ثقافة الحداثة في المؤرخ، وثانيتها تأثير ثقافة ما بعد الحداثة في المؤرخ، وثالثتها موقف المؤرخ المغربي من مفاهيم الحداثة وما بعد الحداثة.

(*) أستاذ بشعبة اللغة العربية وآدابها - كلية الاداب - جامعة محمد الخامس - الرباط.

1 ـ المؤرخ وثقافة الحداثة :

لقد سادت في القرن السابع عشر وجهة نظر ترى أن الطبيعة نظام كامل ومتعال. وتأسيسا على وجهة النظر هذه صيغ التشبيه التالي : الكون آلة. وهذا التشبيه يعكس النظرة الميكانيكية للطبيعة، وهي نظرة تقر بأن الطبيعة جامدة وميتة ؛ وما دامت حالتها هي هذه فإنه يمكن السيطرة عليها والتحكم فيها وصنع تراتبات منها ؛ وهذه النظرة جاءت لدحض النظرة الدينية للطبيعة باعتبارها سقوطا ونقصانا[1].. ولدحض فكرة أن الطبيعة حية فوضوية (وعمائية)[2]. إن ما يهمنا تسجيله هنا هو أن ذلك التشبيه أدى إلى البحث عن القوانين التي تحكم مظاهر الطبيعة والمجتمع، تلك القوانين التي تؤدي إلى اليقين وإلى التنبؤ (ديكارت 1650-1596)، ونيوتن (1727-1642).. كما أن ما يهمنا هنا هو أن المؤرخ يجب أن يكون مثل العالم الميكانيكي الذي يبحث عن القوانين واليقين والتنبؤ.. والتسليم بأن الظواهر تتطور حسب قوانين خاصة وليس تطورها تحكمه المصادفة.. ومن هذه الخلفيات جاءت نظريات خطية التطور التأريخي وفكرة التقدّم.. والحتمية والحقيقة.

إن كل مفهوم من هذه المفاهيم أسال حبرا غزيرا فكتبت فيه أدبيات كثيرة من وجهات نظر مختلفة (علمية وفلسفية ومنطقية واجتماعية) ؛ إلا أننا سنكتفي بمفهومين أساسيين يُكَوِّنَان لب الفكر التاريخي ؛ أولهما مفهوم الحتمية التاريخية وما تقتضيه من تنبؤ و"توقف" للزمان وتفسيرات نهائية ؛ وثانيهما مفهوم الحقيقة.

أ ـ مفهوم الحتمية والمؤرخ.

لقد أفاض الفلاسفة وفلاسفة العلم والفيزيائيون وعلماء الاجتماع وعلماء الدين في الحديث عن الحتمية. ولعل مقالة كارل بوبر في الكون المفتوح توضح مفهوم الحتمية : «يمكن أن تلخص الفكرة الحدسية للحتمية كما يلي : إن العالم بمثابة صور شريط متحرك. الصور التي تشاهد هي الحاضر، وما تقدم من صور هي الماضي، وما لم يشاهد بعد من صور فهو المستقبل. إن المستقبل مع الماضي في الفيلم، لأن المستقبل هو الماضي لأنه مُثَبَّتٌ، ومن ثمة فإن المشاهد وإن كان لا يعلم ما يأتي من أحداث فإن كل حدث في المستقبل سيعلم يقينا كما علمت أحداث الماضي لأن المستقبل له معنى الماضي واتجاهه. ومنتج الشريط ـ خالق العالم يعلم المستقبل»[3] إلا أن مفهوم الحتمية هذا يخص الحتمية العلمية المتعلقة بالأنساق المغلقة المنعدمة الحركة التي سادت لدى الاتجاهات

العلمية والمنطقية المجردة، ولدى المذاهب التأريخية التي أبان عن عقمها[4]. إلا أن التمثيل بشريط الصور ليس شاملا للنوعين معا، لأن تتالي الصور يفيد الزمان، والزمان يؤدي إلى نوع من التطور ؛ وعليه فإن المثال يختص بالمذهب التاريخي وحده ولا يعني الاتجاهات العلمية التي يمكن أن يمثل لها بالرياضيات وخصوصا نظرية التناسب...

إن بعض الكيمائيين المعاصرين يرى أن هذا التصور للحتمية هو أسطورة من أساطير القرن السابق، ولب هذه الأسطورة أن العالم مراقب وموحد بقدرة خارقة، وقد تكون هي الله عند المتدينين، أو هي الصراع الطبقي لدى الماركسيين، كما أنه أسطورة من أساطير بعض العلوم المعاصرة مثل الرياضيات التي هي حتمية ويقينية بما تحتويه من تناظر، وبعض الاتجاهات الفيزيائية... وقد تبنى بعض العلماء الحتمية وما تقتضيه من تنبؤ لإبعاد تدخل القوات الغيبية والمصادفة في آن واحد ؛ وبذلك فهي شيء مفيد للبحث العلمي الذي يحاول أن يصبح تفسيره يقينا بل وقدريا[5] (Fate) لقوانين الطبيعة، واكتشافه للشروط الأولية المبدئية أو ذات الحساسية مقبولا.

إلا أن التطورات العلمية التي حدثت في الكيمياء وفي الفيزياء وفي البيولوجيا وفي الرياضيات وفي غيرها جعلت العلماء يَتَخَلَّوْنَ شيئا فشيئا عن التصورات الحتمية ومقتضياتها ؛ ومن بين هؤلاء كارل بوبر الذي قسم الحتمية إلى صنفين : الحتمية العلمية التي سبقت الإشارة إليها، والحتمية الميتافيزيقية التي تقرر : «أن الأحداث لا يعلمها كل واحد، وأنها غير متنبإ بها من قبل الوسائل العلمية، وأن المستقبل متغير قليلا عن الماضي» (1956، ص. 8)[7]، وقد ازداد هذا الاتجاه اللايقيني اللاتنبئي عند الكيميائيين والفيزيائيين المعاصرين من أهل العهد الجديد ونظرية العماء..[8].

تلك إشارات عابرة إلى مفهوم الحتمية ومقتضياتها، وهو مفهوم أخذت به بعض العلوم الاجتماعية ؛ وقد أسهمت الدراسات التاريخية بنصيبها في هذا المجال. فكثيرا ما كان يتحدث بعض المؤرخين عن حتمية التاريخ وعن اليقين والتنبؤ ؛ وقد صيغت في هذا المناخ طوباويات.. وقد يجد القارئ في بعض الكتابات التاريخية حديثا عن المصادفة واللاّيقين واللاّأدرية ؛ وهذا التطور لمفهوم الحتمية كان له تأثير على مفهوم محايث له هو مفهوم الحقيقة.

ب ـ مفهوم الحقيقة والمؤرخ.

إن من يقول بالحتمية ومقتضياتها يقول بالحقيقة المطابقة ؛ وتعني «المطابقة بين

الوقائع المحسوسة (العالم والطبيعة) وبين القول عنها والتفكير فيها»[9]. وهذه النظرية المطابقة لها نتائج أنطولوجية ـ ابستمولوجية ؛ وهي أن كل ما في الكون حق لأنه يستمد وجوده من حقيقة أبدية منبثة في مخلوقات الكون، تلك المخلوقات التي هي دلائل عليها.. وأن تلك المطابقة لها درجات من مماثلة ومضاهاة ومشابهة... بين الحقيقة المطلقة والمخلوقات التي هي مراسم[10] لفهمها. وهذا الاتجاه المتطابقي مازال موجودا ولكنه يتجلى في مظاهر مختلفة : الطبيعة، أو الإنسان، أو الدماغ.. ومن ثمة، فإن مفهوم الحقيقة مركز اهتمام كثير من الفلاسفة والمناطقة وفلاسفة التاريخ، والعلماء التجربانيين[11]..

وما يهمنا هنا هو أن فلاسفة التاريخ يَتَعَرَّضُون في أبحاثهم إلى إشكال الحقيقة والموضوعية والتاريخ. وهكذا أطلقوا على الحقيقة المطابقية الواقعية الميتافيزيقية التي تعني أن هناك حقيقة مطلقة نتجت عن معرفة للأشياء بطريقة طابقت الوجود الموضوعي الواقعي لاتباع طريقة العلوم الطبيعية التي تتبنّى مجموعة قواعد وإجراءات تضمن الحقيقة والموضوعية.

يتبين مما تقدم حول مفهوم الحتمية والمؤرخ ومفهوم الحقيقة والمؤرخ أن المؤرخ استمد تصوراته ومفاهيمه من ثقافة عهود الحداثة : الميكانيكا والفيزياء والرياضيات... ولكن التطور الثقافي و/أو الثورة الثقافية التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية قضت على بعض المفاهيم وعدلت غيرها أو سَرَّبَتْهَا إلى مجالات علمية أخرى.

2 - المؤرخ وثقافة ما بعد الحداثة.

على أننا نكتفي ببعض الإشارات إلى بعض التيارات الفكرية التي هي ما بعد حداثية، والتي أثرت أطروحاتها في بعض الكتابات التاريخية ؛ وأهم المفاهيم المستعملة في هذا المنعطف الثقافي هي الدينامية المعقدة، واللانظام، واللاخطية واللاتنبئية والتناظر التدرجي... والعماء. وهذه المفاهيم مستمدة من الفيزياء والميكانيكا والبيولوجيا والرياضيات.. كما أن هناك مفاهيم لسانية أسهمت في هذا الاتجاه[12].

لقد تأثر بمفاهيم هذه العلوم كثير من الفلاسفة، ثم بعض المؤرخين، وخصوصا في فرنسا وبعض بلدان أوروبا الأخرى وأميركا؛ ولعل من بين أشهر الذين استجابوا لهذه المفاهيم وتلقوها بنباهة هو دريدا الذي عبر عنها بوضوح في بعض كتاباته ؛ ومن بين ما قرره : ليس هناك اتجاه ضروري للتأريخ، أو لنظام التاريخ، وليس للتاريخ بداية أو

أصــل، ومـن ثمـة فإنـه ليـس لـه نـهـايـة أيـضـا ؛ أي أن فـكـرة نهـايـة التاريـخ مـرفـوضـة.. ومـادام الأمـر هـكذا، أو ما قرب منه أو ما بـعد.. ولم يعلم ما أتـى، وما يأتـي، ماسيأتي...[13].

ليست هناك حتمية ولا اتجاه ولا تنبؤ، ومن ثمة فإن الحقيقة ليست موجودة سلفا، أو ليست موجودة بصفة نهائية فيما يرى دريدا كما رأى قبله نيتشه الذي كان يعتقد أن ليس هناك حقيقة، وليس هناك نظام أبدي ومعقول يمكن أن يفهم بكل دقة[14].. وكما ترى كثير من العلوم المعاصرة ؛ ومنها الفيزياء والرياضايات...

ولقد تـأثرت بعض الأبـحاث التاريـخيـة بـهـذه الـنقلـة الإبستمـولـوجـيـة : من الحتميـة إلـى المصادفة، ومن الخطية إلى اللاّخطية ومن الحقيقة المطابقة إلى اللاّحقيقة، أو الحقيقـة المشيّدة النسبيـة.. كمـا أثـرت هذه المفاهيـم في موضوعـات التاريـخ إذ صـار المؤرخون يبحثون في الأقليات وفي الفئـات الدنيا وفي دور النساء في التاريخ.. بدلا من الاهتمام بالنماذج البطولية..[15].

بيد أن هناك باحثين آخـرين توسطوا بين الاتجاه الحتمي التنبؤي ذي الحـقيقة المطلقة وبين الاتجـاه الـنسبي المتطـرف ؛ وقد أسمـى بعـضهـم هذا الاتجاه الـتوسـطي بالـواقعـية العملية[16] ؛ وهذا الاتجـاه يستـند إلى مشـروع التقـليد الـذرائعي الأميـريكي الـذي وطد أركانه ش.س.برس وأتباعه، وهو اتجاه يجمع بين التجـربة الذاتية من جهة، وتفاعلها مع أشياء العالم من جهة أخرى ؛ إن للجسم دورا كـبيرا في تحصيل الإدراك والفهم والمعرفة بتفاعله مع مكونات المحيط ؛ وهذه الثنائية (الذات والعالم) تؤدي إلى نسبية معتدلة ترى أن الموضوعية التاريخية مشوبة بمواقف المؤرخ وافتراضاته وانفعالاته، ولكنها ليست ذاتية مطلقة، وإنمـا هي ذاتية متأثرة بالجـماعات الاجتماعية والمجـموعات العلمية ؛ وعـليه فإن الحقيقة مشروع جماعي تواقفي ليس معـطى سلفا أو مفروضا فرضا كما أن المؤرخ ليس فوضويا أو عبثيّا عَدَميا عمائيا..

لعـل أهم من يمـثل هذا الاتجـاه هم مؤلـفوا كـتاب قول الحـقيقـة حول التـاريخ[17] (1994) ؛ وقد أثـار هذا الكـتاب نـقاشا كـبيرا فـي أوساط المهـتمين بـالتـأريخ وبمذاهـبه وبفلسـفته ؛ وما تجب الإشارة إليه هـو أنهم هم أهل اتجاه الواقعـية العملية، وأنهـم انتهوا إلى الخلاصـة التالية : «قرارنـا هو قبول الاعتـقاد في إمكان امـتلاك الحقائق حول الـعالم جزئيا لأننا بـاعتبارنا أساتذة ومربين علينـا أن نصل إلى النتيجة التالـية ؛ وهي أن التهرب

من طرح إشكال الحقيقة يجعل الطلبة مضطربيـن من جراء ألغاز دريدا وأحاجيه ومسحورين بها»[18].

تلك إشارات عابرة إلى موقف العلماء والفلاسفة والمؤرخين من الحتمية وتضمناتها والحقيقة وتداعياتها ؛ وهي كما رأينا ثلاثة مواقف : إثنان متقابلان، وما بينهما موقف ثالث ؛ إلا أن المؤرخ تصادفه صعوبات عديدة ؛ منها أن أغلب المفاهيم التي يوظفها مستقاة من مجالات علمية أخرى، وإذا وظفت كما هي في المجال المنقولة إليه فإنه يصل إلى نتائج خاطئة بل وضارة ؛ وقد أدى النقل الحرفي في التأريخ للثقافة إلى أخطاء شنيعة ؛ ومع ذلك، فإنه لا مفر من التعامل مع المفاهيم المعاصرة.

3 ـ المؤرخ المغربي والثقافة.

تلك هي الصعوبات العامة، وهي صعوبات تكاد لا تقاس بالمشاق التي يواجهها المؤرخ الأجنبي عن ثقافة الحداثة وثقافة ما بعد الحداثة، مثل المؤرخ المغربي. ذلك أن المفاهيم مهما كان نوعها منبثقة عن المناخ الثقافي السائد. المؤرخ المغربي يوظف مفاهيم انبثقت في غير ثقافته، وإذا اعتبرت تلك المفاهيم تاريخية نسبية فإنه حينئذ يستخدم آليات لتخريب ذاكرته الثقافية والحضارية. غير أن فعله يصير مستساغًا إذا ما استند إلى مفاهيم تعكس القوانين الطبيعية والإنسانية ووظفها بذكاء وحصافة رأي. في ظل ضروب الشعور هذه وظفنا بعض المفاهيم مثل الحتمية والتنبؤية والتوقعية والحقيقية مستندين إلى قوانين الطبيعة المجردة وقوانين المحيط الملموسة وخصوصيات التشييد الذاتي.

أ ـ القوانين الطبيعية المحيطية.

نعني بقوانين الطبيعة البداية من نقطة ما، مما ينشأ عنه شروط أولية بسيطة أو معقدة ذات حساسية عالية، ونقصد بقوانين المحيط الموقع الجغرافي الذي يؤدي إلى تفاعل وصدام، والأوضاع البشرية والاقتصادية والثقافية في ضوء هذه القوانين كلها حاولنا رصد درجة التاريخ في المغرب : ثبات، وتحقيب، وانقطاع. وتحدد درجة الحركة باعتبارات المحلل من جهة والمجموعات والجماعات من جهة ثانية. فإذا اعتبر المحلل المؤرخ أن درجة التطور صفر فإنه يكون هناك ثبات مطلق، وتطابق بين الحاضر والماضي والمستقبل مثلما تقدم في مثال كارل بوبر. في ضوء هذا المنظور يمكن أن يقال إن الحاضر الذي يعيشه المغاربة ليس بينه وبين ماضيهم فرق يذكر كما أن المستقبل سيكون

نسخة من هذا الحاضر وذلك الماضي وبهذا تصير أطروحة الحتمية المطلقة والتنبؤ المطلق صحيحة. وبطبيعة الحال فإن هذه الحتمية ذات الأصول الميتافيزيقية، والأصول الفيزيائية المحافظة لا يمكن أن تطبق على أي مجتمع من المجتمعات.

وإذا اعتبر المحلل المؤرخ أن هناك تطورا منتظما في المجتمع والثقافة... فإنه حينئذ ملزم بقبول تكرر أحداث بينها تشابه واختلاف ؛ وهذا التكرار هو ما يُدْعَى بالحقبة ؛ وهي بمثابة منعطفات تاريخية تتحقق من خلال سهم الزمان. هكذا يمكن أن يفترض المحلل المؤرخ الصراع بين الإسلام والكفر في الغرب الإسلامي محركا أساسيا لصيرورة الثقافة المغربية مع الإقرار بأن الدين ليس العامل الوحيد لتفسير التاريخ ؛ ولكنه كان الشعار الذي يحرك الناس للصراع أكثر من غيره. وقد يستدل ـ لتصحيح فرضه ـ بفتح الأندلس، واسترجاعها، ومعركة وادي المخازن، وفرض الحماية. وقد كان كل صدام أو صراع يؤدي إلى تغييرات في المجتمع المغربي..

إن هذا التحقيب يمنع أن تكون الثقافة المغربية وليدة حتمية عمياء وقدر خابط خبط عشواء، ولكنها وليدة "حتمية" بشرية جزئية. إذ لا يمكن أن ينكر أن الحماية وتداعياتها الحاضرة يمكن أن يفسر بها جزء من الماضي، ويمكن أن يتوقع بها ما قد يحصل في المستقبل. إن الأحداث التي نعيشها الآن مثل قضية الصحراء وقضية الثقافة هي مؤشر على أحداث عميقة تعود إلى الشروط الأولية.

وأما إذا اعتبرَ المحلل المؤرخ أن الشروط الأولية التي هي الإسلام بما يقتضيه من وحدة الأمة ووحدة السلطة للقيام بالصراع ذات تبعية حساسة حدث فيها تغيير أو يجب أن يحدث فيها تغيير، فإنه حينئذ يجب أن ينتظر وضعا عمائيا أو كارثيا يستنتج عنه وضع جديد ؛ وحينئذ فإنه لن يكون هناك أية درجة من درجات الحتمية، وتبعا لذلك لا يمكن التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور.

بَيْدَ أن المتأمل لتاريخ المغرب يرى أن الشروط الأولية لم يقع فيها أي تعديل، وإذا ما شعر المؤتمنون بمَيَلان حركوا مركز الجذب فأعاد الأمور إلى نصابها (بداية الموحدين) (وحركة العكاكزة) و(الحركة الثقافية في بداية السعديين) (والحركة الثقافية لسنوات الستين وبداية سنوات السبعين)[19].

إن الشروط الأولية قد لا يقع الاتفاق حولها ؛ فما اقترحناه من شروط أولية يُركِّز على إشكال الصراع مع الأجنبي، وهو صراع كان يكتسي لَبُوسًا دينيًا وإن كانت دوافعه

متعددة، وقد يقترح آخرون شروطا أولية داخلية (قضية الحكم، أو مسألة الأرض...) ولكن ما يجب أن يُقَرّ في الأذهان أن البدايات تحتم بعض التوقعات، وخصوصا في المجتمعات ذات التطور المتكرّر أو الحقبي ؛ وأما إذا كانت هناك شروط أولية ذات حساسية ومعقدة فإنه لا يمكن التوقع بَلْه التنبؤ كما هو الشأن في الأوضاع العالمية المعاصرة المترابط بعضها ببعض.

ب ـ الفطريات والتشييدات.

ذلك وجه من أوجه تعاملنا مع بعض المفاهيم العلمية المنقولة إلى رصد تطور الثقافة المغربية ؛ أي مفهوم الحتمية والتطورية والتنبؤيّة، وسنقدم الآن وجها آخر من أوجه تعاملنا مع بعض المفاهيم ذات الأبعاد المتعددة ؛ مثل مفهوم الحقيقة. لقد أشرنا قبل إلى ثلاثة أصناف من الحقيقة : الحقيقة المطابقة، والحقيقة العملية، والحقيقة النسبية أو المشيدة.

لقد اخترنا نموذجا من الثقافة المغربية ؛ هو "مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة" لمناقشة موقف التاريخي و/أو التاريخاني وإحراجه. ذلك أن التاريخ يرى أن مثل هذه الرسالة التي تتحدث عن الإلهيات، وهو موضوع عفى عليه الزمان مما يجعل الخوض فيه مضيعة للوقت وللمال. ولكن الأمر أعقد مما يرى التاريخاني لأن مثل هذه المواضيع تطرح مسألة الفطريات البشرية ؛ ومنها طرق الاستدلال وأنواعه.

2 ـ الفطريات.

إن قارئ رسالة "مراسيم..." يجدها أثارت مسائل مازالت تشغل الفكر البشري إلى الآن مثل مسألة الحدود المنطقية وعجزها عن تشييد معرفة علمية، وتبنى التعريفات العلائقية والوظيفية والرسوم اللزومية.. وأثارت مسألة الإدراك وأنواعه : طريق الحواس أو الإدراك الخام، وطريق الفكر والروية أو تنظيم الإدراك بصياغة مقولات مجردة، وطريق البرهان. وإذا كان الإدراك الحسي عَتَبَة أولى في طريق المعرفة فإن الإدراك العقلي مفضل عليه لإمكان خداع الحواس ؛ كما نبهت إلى درجات الوجود : الوجود المطلق والوجود الذهني والوجود العيني، ومجال الإمكان والغيب ؛ وتدرك مراتب الوجود بالافتراض والتمثيل والاستقراء والاستنباط..(20) ؛ وطرق الإدراك ومراتب الوجود هي ما أفاضت فيه الكتابات الفلسفية قبل ابن البناء وبعده.

إن ما احتوت عليه "مراسم" فطري يشترك فيه البشر جميعهم بغَضّ النظر عن

الزمان والمكان والجنس ؛ وهذا ما تحاول الأبحاث البيولوجية والفلسفية الباحثة في الفطريات البشرية بل والكليات أن تُثْبِتَهُ. فعلماء النفس المختصون في دراسة نمو الأطفال صاغوا نظريات منها "نظرية فكَر الأطفال" ؛ وتُحاول هذه النظرية أن تشبه العلماء بالأطفال الكبار بدلا من أن تعتبر الأطفال علماء صغارا ؛ كما تحاول نظريّات أخرى أن تثبت أن هناك نظريات جوهرانية يشترك فيها البشر جميعهم.

من المؤكد أن هذه الاقتراحات النظرية الجديدة ستُخَلْخلُ مسلّمات التاريخاني الذي تحكمه الثقافة العقلانية الوضعية، أو الثقافة النسبية المعتدلة أو المتطرفة. هذه المسلمات التي أعادت الحياة إلى المواقف العقلانية القديمة والحديثة (أفلاطون وكانت وليفي شتراوس) ولكن على أسس تجربانية تعتمد على البيولوجيا وعلم الأعصاب.. وعلم النفس الخاص لنُمُوّ الأطفال، والعلم الخاص بدراسة سلوك الحيوان...

بيد أن مسلمات التاريخاني، وإن سوئلت، لم تَصرْ عديمة الجدوى والوجاهة بصفة نهائية ؛ ذلك أنها مستمرة تحت مفهومي المحيط (UMVELT) والتشييد (Construction). وذلك أن كثيرا من الباحثين يرون أن الفطري والمكتسب غير منفصلين، ولكن السياق هو الذي يحدد طبيعتهما ؛ يقول أحد الباحثين : "إن كل خلايا جسمي لها نفس الجهاز المورّثي. وتبعا للسياق فإن بعضها وحدات عصبية، وبعضها خلايا معوية، أو عضلية"(21).

2 ـ التشييدات.

لقد أتت التشييدات لتدفع بالخصوصيات إلى أقصى درجاتها ؛ إذ هي تركز على الأهمية الحاسمة للتطور الذاتي في السلوك بالجمع بين القدرات الأولية المتفاعلة مع التعلم لتشييد إمكانات سلوكية للفرد ؛ وكل فرد يختلف عن فرد آخر في تصور محيطه تبعا لتجاربه ونوع تعلمه وأصناف مهاراته : "كل حياة تاريخ متفرد تشبه عالمها، تاريخ تشيده الثقافة واللغة والعائلة" ؛ إلا أن الفرد ليس جزيرة منعزلة ولكنه اجتماعي بطبيعته يشيد ثقافة مشتركة.

ما يهم التأكيد عليه هو أن التشييدية تمد التاريخاني بأدلة للاستمرار بالقول بالنسبة في صيغتها المعتدلة والمتطرفة، ولكنها تسلب التاريخيّ الوضعي كل حجة ودليل.

خاتمة.

يتبين من هذا أن المؤرخ يتأثر بثقافة عصره، والمؤرخ المغربي ليس بمعزل عن هذا القانون العام. إلا أن المؤرخ المغربي مازال في حاجة إلى ثقافة الحداثة ليكتب تاريخا

معقولا للحكم ونظمه وتنظيماته وللثقافة "العالمة" بكل أنواعها كما أنه في حاجة إلى ثقافة ما بعد الحداثة ليؤلف في الثقافة "الشعبية" والمهمشين، وهو في حاجة ماسّة إلى الإلمام بالمناخ الذي أحدثته الثورات العلمية المعاصرة.

إن هذه الثورات العلمية هي التي تجعله يراجع بعض مواقفه مثل اعتقاده أنه من ضياع الوقت والمال الخوض في إشكالات انتهت مُفْتَرضا قطيعة مطلقة بين التصورات والمفاهيم الثقافية. والقول بهذه القطيعة قد يؤدي إلى الزعم أن هناك قطيعة بين الأمم والشعوب : شعوب متقدمة أو حَارَّة، وشعوب متأخرة أوباردة مما يؤدي إلى كوارث إنسانية.. وهذه الثورات العلمية التي تتبنى الفطريات والجوهرانيات والكليات لا تجعل الفروق بين البشر شيئا حتميا، وإنما هي فروق مردّها إلى المحيط ؛ فهناك محيط خضع لثورات متعددة نتجت عنها حرية الإرادة والديمقراطية وحرية التّخيّل والإبداع... وهناك محيط بقي هامدا خامداً.

إن هذا المنعطف الثقافي الجديد هو الذي يجعل المؤرخ قادرا على الإجابة عن الأسئلة التالية : لماذا حصر تفكير ابن البناء في الإلهيات دون تنميته ليشمل مظاهر الطبيعة المادية مثلما تهيأ لآخرين في سياقات أخرى؟ لماذا برز ابن البناء من بين معاصريه؟ لماذا رفض ابن خلدون الخوض في الإلهيات مقتصرا على فكر وضعاني علمي؟ إن الإجابة أو بعضها لدى تلك العلوم المعاصرة، وخصوصا إذا أنجزت دراسات مقارنة حتى يمكن تطوير المحيط لتطوير فكر الإنسان المغربي حتى لا يبقى حبيس تصورات عملية وضعانية لا ضفاف لها تعوقه عن الخلق والإبداع.

هوامش وتعليقات

(1) يتبين من هذا أن الإصلاح الديني كان له تأثيره المؤكد في تطور رؤية العلماء للعالم.

(2) التشبيه "الكون آلة" يعكس التطور العلمي الذي ركز على الميكانيكا مما أدى إلى تصور الكون في ضوئها وحسب قوانينها، مثلما هو شأن التشبيه المعاصر : "الدماغ حاسوب".

(3) Stéphan H.Kellert, in the Walke of Chaos, the University of Chicago Press, 1993, p.53.

(4) لكارل بوبر كتاب شهير ترجم إلى العربية بعنوان : عقم المذهب التاريخي، وهو ينتقد فيه المذهب التاريخي بصفة عامة والاتجاه الماركسي في التاريخ بوجه خاص.

(5) لمزيد من الاطلاع يرجع إلى الكتاب المذكور في هامش (3). فقد تعرض فيه للحتمية ولسبب تبنيها، ومستوياتها، وتقابلها مع نظرية العماء، والحتمية والنظرية الكوانتية في الميكانيكا، والنظرية العمائية والميكانيكا الكوانتية في مقابل التطور الوحيد... (ص76-49).

(6) إن الكتب التي تتحدث عن الفيزياء والتطور الحقبي أو العمائي تستعمل هذا التعبير :
"Sensitive dépendance on initial conditions".
وإذا ما استطاع الباحث أن يعين بدقة الأوضاع الأولية فإن الحالات المستقبلية يمكن حسابها وتوقعها. ولكن الحساب الرياضي الدقيق لا يمكن أن ينجز في المعنويات مثل تاريخ الثقافة، والتاريخ بصفة عامة.

(7) انظر ما ذكر في هامش (5). ص.61.

(8) ما تقدم ونفس الصفحة.

(9) هذا هو التعريف الشائع الذي يجد المهتم في المعاجم التي تتحدث عن الحقيقة وأنواعها.

(10) أنظر مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليفة ؛ وهايدكر يقول حينما يتحدث عن كائن الكائنات "Being of being" : "لأن الكائن يظهر نفسه من خلال الكائنات فإنه لن يفهم بكيفية مباشرة أبدا".

(11) لنا بحث في هذا المجال حول : الحقيقة بين التجريب والتشييد، رصدنا فيه مختلف الآراء حول الحقيقة. وقد رأينا فيه أن العقلانين والتجربانيين عادوا إلى أطروحة الحقيقة المستقلة.

(12) أنظر كتاب S.H.Kellert. وأما المفاهيم اللسانية مثل إنكار مرجعية اللغة، والانتظام والإحالة الذاتيين للنص، وإعتام اللغة وضبابيتها.

(13) لمزيد من الاطلاع أنظر :

CATHERINE H.ZUCKERT, Post Modern PLATOS,... the University of Chicago Press, 1996, pp. 201-253 (229).

(14) أنظر المرجع أعلاه، ص.53.

(15) لمن يريد الاطلاع على هذه الفكرة وما بعدها يجب الرجوع إلى :

Journal the History of Ideas, esp : Martin Bunzt, "Truth, Objectivity, and History", Bonnie G. Smith, "Pragmatism to the Rescue ?, John Higham, "Whosetruth, Whose History?", and Joyce Appleby et AL, "The Limits of Relativisme". Vol.56, N° 4, October, 1995.

(16) أنظر جواب Joyce Appleby et AL.pp.679-680.

(17) أنظر أعلاه.

(18) أنظر أعلاه.

(19) ليمكن الاطلاع على تطبيق هذه المفاهيم، ينظر كتاب محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1996، الفصل الرابع، التحقيب، ص. 188-157..

(20) لنا دراسة حول مراسم الطريقة بعنوان : الحقيقة المجردة.

(21) لمزيد من الاطلاع يرجع إلى ما يلي :

YVES CHRISTEN, L'Homme bioculturel, de la molécule à la civilisation, Edition Du Rocher, 1986.

LAWRENCE A. HIRSCH FELD et AL, Mapping the Mind... Cambridge University Press, 1994.

Derek ATTRIDGE et AL, Post-structuralism and the question of History, Cambridge University Press, 1987.